الغزل فى شعر أبى شادى

بقلم الأديب المجدد الاستاذ على محمد البحراوى

(١)

قصة قلب !

عاصفة يبعثها القدر العاتى تفرق بين بائعين تؤلف بين قلبيهما عاطفة مشتركة !

ويد عابثة تمتد فتحرم القلب المنى مكله وتهصره وتهده وجداً !

وقصتنا اليوم هى قصة هذا القلب الشهيد !

* * *

درجا معاً إثنين . . وشبا خلين . . وعاشا حبين .

ونضج حبهما مبكراً . وذاقا لوعة الصد . ونعما بلذة الألفة ومازالا صغيرين ، وكانت تحوط أحدهما (الذى نروى قصته) بيئة صحفية أدبية جعلته يشدو لصاحبة القلب الآخر :

نشأت وقلبى يصوغ لك - وإنى رميت على حبك

ولم يكن يتجاوز إذ ذاك الثانية عشرة من عمره ، ولا يستغرب إجادة التعبير فى هذه السن امرؤ يعترف بأثر الوراثة فى ميول الفتى وطباعه ، وتبكيره الغزل هذا يذكرنا بنظيره عند الشاعر الانجليزى العظيم اللورد بيرون .

وشاءت الظروف القاسية أن يبرح الشاب وطنه ، ويترك أهله ، ويغادر حبه . . قلبه . . سعادته . . ويسافر إلى انجلترا الباردة العبوس . . ولكنها لم تطفىء لظى فؤاده بل زادتها سعيراً ! . .

والدهر يأبى الا أن يفجع الشاب فى غرامه . . فى هنائه . . بل فى حياته

ماذا ؟! هل تقضى الأمر ! وهل يحرم الى الأبد حبيبته . . أمله ومناه !

تنكس صحته . ويتنابه سقام قاتل وهو فى وحدته ثم فى غربته ، وهو بعد ذلك يقاسى لوعة غرامه فلم يفتر تكبته فيه بعد !

تلك حتى تتفطر هذا قلوبنا ساعتها ، ثم ... ... ى وهو ساخر !

إلهى السلوة فى الشعر .. فأقبل عليه يبثه نجواه ، ويشكو له من حبه .. من أمله .. من حياته .. من العالم أجمع .. بل منه هو أيضاً !

هذا مجمل قصة القلب الدامى الحصير ! ولعلها هى السبب فى خروج أبى شادى شاعر التجديد مبكراً الى حلبة الشعراء ، وستتبع أثرها فى نفسه وفى شعره معاً ، وسنجدها مهمة ممتعة ولكنها لن تخلو فى بعض الأحيان من إحساس أسى ولوعة وإشفاق على صاحب قصة القلب الكسير !

(٢)

أطوار الغزل

بدأت هذه القصة وفتاها فى الثانية عشرة ، وهو وإن كان يناهز الآن السابعة والثلاثين إلا أننا مضطرون إلى تقسيم هذه المدة الطويلة إلى أطوار ثلاثة :

(١) شعر الصبا — وهو الذى يصف نشأة الحب ، وأيامه الأولى التى نعم فيها الشاعر ، وحياة الشاعر قبل سفره الى انجلترا بعد أن وقع فى غرامه .

(٢) شعر الشباب الأول — وهو الذى يصف لجيعة الشاعر فى غرامه ، وغربته وآلامه ، ومرضه ، وشكوى الحياة والناس والنفس والحب .

(٣) شعر الشباب الثانى (وهو ماتسميه فنيا شعر الكهولة) — وهو الذى تسامى فيه أكثر غرام الشاعر الى شعر وصفى وشعر فلسفى وشعر تهذيبى وشعر انسانى وشعر قصصى وشعر تمثيلى ، ولعل هذه الكهولة أغنى أطوار شعره وأعدلها فالرجولة المعنوية فيها مكتملة ، وكم نريد أن تكون كهولته فى الشعر طويلة بقدر ماهى ممتعة .

ولكننا نعمد الى هذا التقسيم مع ابى شادى بالنسبة للغزل فقط ، وهو تقسيم لا يتعدى الحدود الفنية وليس للتاريخ فيه أى حساب ، فقد نجد فى شعر الصبا بعض سمات الكهولة فتعدها منها ، وقد نعثر فى شعر كهولته على ذكرى لغرام الصبا ووصف لنعيمه فلا نحسب هذا إلا من شعر الصبا .

وسندرس معاً هذه الاطوار الثلاثة ، وستأسف معى بلا شك على ضياع جانب

كبير من شعر أبي شادى الغزلى بين ماتركه فى مصر من مخطوط أثناء اغترابه الطويل بانجلترا ، وفيما اجتمع لديه فى سنى غربته وصدر معه أوراقه السيالية ومنظوماته الوطنية بمحمرك الاسكندرية فى ديسمبر سنة ١٩٢٢م ثم لم يستطع الحصول عليه فيما بعد .

وستسر معى ولا شك عند ماتعلم بالمجهود الذي بذله محبوه ومريدوه — وفى طليعتهم الاستاذ الجداوى — فى جمع غزله القديم (شعر الصبا) من متفرق الصحف ومن أوراق الاصدقاء والزملاء مما هو مثبوت فى ديوان الغزلي (« زينب » أو نفحات من شعر الغناء) وفى ديوان (« أنين ورنين » أو صور من شعر الشباب) . وفى هذين سندرس من غزل أبي شادى شعر الصبا وشعر الشباب ، أما شعر الكهولة الغزلية فستكون دراستنا له فى ديوانه الجديد (الشفق الباكى) وفى الجزء الاول من ديوانه المخطوط (وحى العام)) الذى اعتزم أن يصدر أجزاءه متلاحقة فى نهاية كل عام وقد ظهرت نماذج شتى منه فى طائفة من كبريات المجلات والصحف وفى طليعتها العصور .

(٣)

غزل الصبا

امتاز شعر أبي شادى فى صباه برقة العبارة وحرارة العاطفة وموسيقية البيان . وهو فى صميمه شعر غنائى أيضا ، ولعمرى انها لحدود يجب أن لايتعداها الشعر الغزلى المطبوع . أنظر اليه يشرح قصة غرامه :

أخذت تلقتنى الغرام بنظرة ٭ عتبت كأن أسيرها القلب الخلى !

وقد خشى نظرتها وطلب الامان :

فجعلت أسألها الامان وأتقى ٭ من لحظها ما أتقى المتململ !

ثم أخذته الفتنة والحسن :

مابين فتنتها وبلسم حسنها ٭ أنا قسمة المعـــزز والمذلل

فجعل يتشكى :

يا (زين) مافى النفس الاحرقة ٭ تبقى كسابقة الشعو الاول

ويذكر عندها هواه واخلاصه فيه :

أحببتك الحب الصحيح وانتى ٭ باقى على الايفاء والشرف العلى

وهو مع ذلك لم يمنع شعاعه عنها يشوقها ويتطلع اليها

يتطلع الشعب المشوق لقبلة ... ولو انه كان الذي لم يعشق !

وفي الشطر الاخير مغالطة تسدد الشاعر إليه (زينه) لخيبة القبلة منها، وهو لو ناالها لاثمله رحيقه والمس ثغرها بالجاح ولكنه لا يذكر ذلك الآن حتى تسمح له بالاولى فهل سمحت ؟ لا وأحسبها تفهم عنه وتشفق على ثغرها الندي فتطالبه بالورع والتقى لله فيجيب

صبراً على (التنوى) وان ذهب الهدى ... بجلالة الماضي وأنس المقبل

فصبراً وان جنى على نفسه بذلك !

وقد تملكه أحيانا نوازع الاسى، ويظن أن في ترقيع الخيبة ما يذهب بها فيطلب اليها:

هاتي لي العود وغني ... واسمعي شجوي وأني

تطرحي الاحزان عني ... فأؤدي صلواتي !

ولا أعرف أناكته هذه الصلوات الاخيرة . وأحسبها فروضاً يؤديها للحب والجمال !

ولقد ، قالت الحسناء سمعاً ، وغنته ، من سلاف الحب نوعا ، وأبدعت حتى خيل إليه أن قد ، رنحت منه الهزارا ! ، ثم طفقت :

ترسل الصوت شجياً ... يملأ القلب دويا

ليته عاش حليفاً ... لينه الباقي لآتي!

ولكن لم يصدق حدسه ، ولم يجد نشوة طمع فيها ، فلقد أشجته أشعار بدعا حتى لفت عن عذابه :

ثم كفت عن عذابي ... بأغاريد الشباب

وتمادت في دعابي ... باللحاظ الفاتنات

وانتهى فعل الغناء، ولكن اللحاظ الفاتنات ، بدأت تفعل سحرها حتى نسي أساه وشجنه!

ومر اليوم فعاوده الشجن فتأوه :

ليه يا يوم تقضي ... في نعيم كيف ترضى

لفؤادي العود أرضى ... كيف ترضى لي عذابي ؟!

وعاد الى (زينه) ، الى منحة أساه الى أمله وبلواه ، يطلب منها وعدا بالوفاء

إيه يا (زين) شبابي ٭ يامنى قلبي المذاب
يامدامي ياشرابي ٭ هاتي من كأسك هاتي !

ولكن أى راح يطلب ؟ إنها رحيق ثغرها الضاحى :

هاتي هاتي الراح من ثغرك الضاحي ٭ وخصي بها الأزهار أجمل أقداح

وقف بنا هنا برهة . نستمع فيها بهذا المعنى البديع ، ونلثم معه الزهرة تقدمها اليه الحبيبة مشفوعة بقبلة من راح ثغرها الضاحى . . أو نستنشق عبيرها على الاقل !

ولا تكتفي باللثم ياقلبي زهرة ٭ لقلبي فما تغني السلاف عن الصاح

حقاً ! . . الصاح قبل الشراب . . ولكن قبلتها فى الزهرة هي الصاح والشراب !

ولا تستعيضي عن سناك بخمرة ٭ فما يسكر الأرواح مسكر أشباح

ماذا ؟ لا . . إنك تتحايل على وصالها بالخديعة مرة أخرى ! فرحيقها يسكر الأرواح والأشباح معاً ! . . ولكن لعل روحك أنت متعطشة أرهقها النجى !

ويترك الشاعر مكلوما حبه وأمله . . ويبرح الوطن والديار . . ولكن ذكر الحب لم يبرحه فما زال القلب خفوقا ! وما زال هو يطمئن إلى خفوقه .

(زينب) ماأحلى الخفوق الذى ٭ لا يرحم القلب لدى قربك !

ثم يذكر بعد الشقة ، ويخاف أن يؤثر ذلك فى حبها له ، فيتملكها الجزع ويناجيها فى حرارة :

(زينب) ياشمسي وبابهجتي ٭ كوني كمهد الشمس فى حبك

ويذكرها بأنه المخلص الوفى لها حياً وميتا :

إن غشت لم تنسخ صلاتي النوى ٭ أو مت ناجاني هوى تربك

ولعمرى إن فى الشطر الأخير معنى يعجز عن متابعة الشاعر فيه خلى لم يعشق ! ومثل ذلك نراه فى تحيته لها حينما وافاه كتابها فأحياه وحياه ، وكان ذلك حوالى سنة ١٩١٠ م . فى إحدى فترات افتراقهما قبل فراقهما النهائى :

كتابك العذب ياروحي وريحاني ٭ وفى فحيا غرامي حين حياني

وتفارقه همومه عند مايرى همومها طائفة ، وينطلق من عقاله يهون عليها الامر ويذكر لها حبه ووفاءه :

رحلت عنك رحيل الطيب عن زهر ٥ يؤدى به البعد لولا حبك الدانى

وتأمل إبداعه فى بيته التالى :

فكنت كالزهر براً والنسيم رضى ٥ وكنت كالشمس فى حسن وإحسان

ثم يذكرها بفعل أنفاسها ومعانيها فى نفسه :

فى كل لفظ معانى الأنس ضاحكة ٥ وكل معنى دليل الصبر للعانى

نعم كان يحوى دلائل الصبر . . . ولكن هل تأثر هو بها ؟ قد تكشف الجوانب فى البيت التالى :

لثمته فى نفى أضعاف مالثمت ٥ حروفه من فؤادى (زين) إيمانى

ثم يطمئنها أخيراً ويطلب اليها أن تدع (خوف الفراق) وهو فى الحقيقة غير مطمئن :

الله يرعاك فى يا مهجتى قدعى ٥ خوف الفراق وكونى عند حسبانى

ولكنه أخطأ فى حسبانه ، وصدقت هى فى خشية القدر !

ولعل من الانسب أن نختم دراستنا لغزل الصبا فى شعر أبى شادى بهذه القطعة (الكروان الرسول) ، وإن كانت مما يصح أن يعتبر من شعر الشباب ، فقد انقطعت عنه أخبار حبه وخشى أن يكون قد جد حادث فطلب إلى (الكروان) أن يقوم بمهمة (الرسول) :

بالله ياكروان ٥ تكفيك أشجانى

بلغ حبيبى الآن ٥ أنى له الثانى !

ثم يذكر حاله وجزعه على حبه فينوح :

لم يبق غير الروح ٥ فى قلبى المجروح

من لى سوى أبوح ٥ مهما تناسانى ؟

وإنه لأسى عميق يشمل الفؤاد . . . وإنى لا تخيل على ضباب هذا الأسى صوره الشاعر وقد جلس يتلقى وحى الأسى واللوعة ، ينظر إلى القرطاس بعين دامعة ، ويعد يداً مرتعشة تخط هذه القطعة :

سائل أعز الناس ٥ هل شاقه غيرى

أو ناله الوسواس ٥ والشك فى أمرى ؟

وكيف تريد أن تكون دراستنا للشعر هذا ؟ ! . . قل لي كيف . . فاني لا أجد غير التأمل ، والتأمل في مثل هذا يورث شجناً قد تغفر له من العين دمعة حسرة :

قد مرت الأعـــوام ، تكـــرى بآلامى
والقلب فيـــه ضرام ، تذكى بأحـــلامى

دراسة الشعر شرح وتحليل وتأمل . . فهل يحتاج مثل هذا الى شرح ؟ لا أظن ! إذن فلنتأمل معاً :

ولو عنى بالعباد ، تذيب حتى الجماد
فكل عيشى فساد ، لولا أهوى الباقى

أي لم تمر ، وآلام مبرحة يحجبها إلا عن نفسه وشعره ، وقلب لايخبو لضرامه أوار ، نختم بها جميعا شعر صباه لندرس معا شعر الشباب . ولكننا لن نكون أقل أسى وحسرة ، ولا أخف لوعة وشجنا . . . فلنعرف كل هذا قبل أن نلذعنا نار و !

(٤)

غزل الشباب

قلنا إن غزل الشباب فى شعر أبي شادى هو الذى يصف تجربته فى غرامه ، ويروى أمله وألمه ، وغربته ولوعته ، وقلنا لانعدو الصواب إذا قلنا إن شعر شبابه عامة هو ثورة حزينة على الحب والشعر والنفس والحياة . . ولعلك تعرف شيئاً من هذا إن قرأت قصيدة (شعر شبابى) التى مطلعها :

قد جمعت الوجد والمكى الأنين ، وتلبست على قلبى الزنين

وقد يكون أبلغ وصف لما تضمنه شعر شبابه قوله :

من رجاء وبكاء وجوى ، ورثاء ووفاء لايبين

عاد أبو شادى بعد استعراض شبابه ووصف ماتضمنه شعره الى الثورة الحزينة مرة ثانية ، فيقول فى حسرة وأسى :

آه ياشعـــر شباب آفل ، لم يعش منك سوى سلوى الحزين

ويخيل لك منشأ هذه الثورة ومبدأ هذا الحزن الساخط في قصيدته (لفتات الغرب) التي يقول منها:

ألا في سبيل الحب والأمل الغالي ... عذابي عذاب الفنى في الجبل الخالي!

ويذكر غربته ووحدته فيندى السمع مثله:

شريداً وحيداً (كالطليحة) موئلي ... أكفكف دمعي في أشعة آصال

وينظر شبابه الغض يذوب شجناً وأسى فيندب عمره:

وأندب عمري، قد تولى أغره ... ولم يبق غير الذكر والمثل العالي

ويتملكه حزن عميق يخيل إليه أنه (من فرط شقوته) خلق (ليعطي الدهر حكمة الاجيال):

كأني لما لاقيت من فرط شقوتي ... خلقت لاعطي الدهر حكمة أجيال!

فهل نظر امرؤ الى العالم بأسود من هذا المنظار!

ولكنك ستلتمس له العذر معي متى وقفت على قوله:

جزيت على طهري بتغريب مهجتي ... وأوذيت من أجل الوفاء ومن آلي!

أحكذا يجزى على طهره ويؤذى لوفائه... ومن تظن ... من ذويه!

إنها حال تبيح له السخط، على الدين والدنيا، كما يقول:

فبت صباً في رجولة ناقم ... على الدين والدنيا، على الشرف البالي

ثم تملكه وحشة مبعثها يرهبها كل ما يحوطه، ويخيل إليه أن الدنيا كلها تنظر اليه شزراً وأن ليس من عاطف عليه سوى البحر!

يحن الى إلى البحر يخفق ماؤه ... ويحملني رفقاً الى الحرم العالي

ولم لا يحن اليه سوى هذا اليم الثائر الصاخب. ألا يقاسمه صخبه وثورته قد يكون. ولكن الشاعر لا يقنع منه بهذا فهو يلح عليه ليحمله. إلى أين.. الى انجلترا. الى وطن الحياة: حياة الفنون والعلوم والآداب والثقافة العليا والجمال المعزى:

إلى الوطن المحيي الموات فلم يصب ... شغافي من داء بقلبي قتال

ثم تأخذه الذكريات ووقاء الحب فيقول في حرارة.

أأحرم من شمسي أحسب هائماً ٥ وحولي ضباب العيش لا الأمل الحالي !

لا . . . ومن يحسبك هائماً في مهجرك ، نائياً عن حبك وأهلك ! ثم تأخذه غضبة على الذين أبعدوه عن أمله فيخاطبهم قائلا : ، فيا عصبة شاءت فباينت وأسرفت ، ، ويتوعدهم بأن ، ستحيا على رغم المسائس أفضالي ، ويعزي نفسه ويعللها بعذب الأماني :

ويذكرني قومي ويعرفني الهوى ٥ فتنقم لي العلياء والزمن التالي

أما قومك فذكروك . وأما الهوى فلا يعرفك إلا منكوبا فيه . . ولقد نقم لك الزمن التالي فهل أطفأ ذلك شيئاً من سعير فؤادك ... لا أظن !

ثم يستأنف وعيده لأولئك الجانين على غرامه ونعيمه :

عرفتم لصوص الحب والحب لم يكن ٥ غفورا ، وكم تشجيه نكبة أمثالي !

إي نعم . وكم تشجيه نكبة أمثالك !

ويعود إلى ذكر هواه ووفائه . وكيف لم ينل منهما سلوان :

سلوت فؤادي في غرامك طائعاً ٥ وما كان عبد في غرامك بالسالي !

نعم لم يتطرق السلو الى غرامه ، وما كان ليتطرق مادام القلب خفاقا وما زال يحيا يحيا ويحيى فيها أصدق عاشق :

سأحيا وأفنى فيك أصدق عاشق ٥ أصاب به الزلزال قدوة أبطال !

وقد يفرغ من غمرة الحزن والكآبة يستعرض حاله فيرى أن الهم لا يدفع قضاء وأن ، الفوز للصبر ، فيقول :

ثق يا فؤادي ولا تصدعك نائبة ٥ فالفوز للصبر لا للهم والزلل

ولكنه يعود فيذكر حاله الآن وما يعاوده من حسرة وأسى بعد أن ، تغنى شعره الربا ، بذكرها :

ثق باوفياً تغنى شعره طرباً ٥ بذكرها ، فغدا يبكي ولم يزل !

وهو بعد أن سحت مآقيه في سيل هواه ماسحت يخاطب قلبه :

أنفقت فيك دموعنا كم بردت بها ٥ هل بعد عهد الثوى تغنى لك أجلى !

لكن القلب مع ذلك ثائر لا يهدأ :

بذوى نور من الثلج ... [illegible] بيضة نور لحب لا يخمن !

ويحس النظر الثانى من هذا البيت معى دهشة . فالشاعر لا يريد أن يشبه حمرة الخد القانى الى خجل . ولكنه يحسه دليل الحب فى لون الدماء :

وهى كالنار مذبوحا وفى قنص ... أو كالرضيع هفا شوقا الى قبل !

وهو تصوير بارع لاضطرابات القلب الحزين ، وقد تانى الى محرم عليه حلال لغيره حبا هو أولى به ، وقد يرى الشاعر يوما إحجافا لا تأخذه من بهجته إلا ذكرى حسرة مؤلم ذاهب . ولا يبرح نفسه إلا لاعجة أسى . أنظر إلى قوله يخاطب (شمس نيسان) :

يا شمس نيسان فى برج لها ثان ... منى الوصال وقلبى عرشك الثانى

منى نعم أوطان مروعة : ... حبى وقلبى وإلهامى وسلوانى !

الى أن يقول يوجه الخطاب الى شمس نيسان ، ويعنى محبوبته التى حرمته ضياءه وإلهام حياته :

ردى حنانك ! إنى لم أصر بشرا ... من الحياة سوى من هجرك الجانى !

ثم يطلب إليها (شمس نيسان) أن تسأله (وفى سؤالها إياه السحر والوحى لهم) ان يرتل شيئاً من شعره . على أنغامه ترق من عواطفها وتفتنها بعبادته إياها :

سليه يعتق بأنغام يرتلها ... شعرى كأن بها إعجاز قرآن !

يطول به الحزن ، ويضنيه الشجن فيحار الى مهجته فى الظلام يحاول أن يراه منها ولكنها ترفض :

خلوت إلى مهجتى فى الظلام ... أخلس من حظها الغابر

فقالت : حرام ، حرام ، حرام ! ... فما الأنس فى البعد عن مؤنسى

وتردف تأكيداً :

وهل طاب للعاشقين المنام ... اذا احتجبت (زينة) المجلس !

لا ..!

فما لله دعنى لدمعى الحزين
فقد شاء ربى لمثلى الأنين
وكن راحما ، ان لربى عتاب

تريد أن يتركها فريسة الشجن فقد كتب لمثلها الأنين ، وتسأله أن يكون رحيما ويقصر اللوم فقى ذلك ها عذاب ! ومن هى ؟ . . . . مهجته !

أجبنى : ألم يتقطع بباطل قلبك . . . .

وأسكرنى حبها نائماً ، فلم أستفق قبل شمس الصباح

أضغاث أحلام !

فقلت : أيا مهجتى ظالماً ، أمانيه من خافها ما يباح

ثم ماذا ؟

فما العيش الا الذى دائما ، وما الموت الا الرضى بالكفاح

فهل يرضى بالقضاء

فهل اكتفى من غرامى بدين
هو الوجد فى باقيات السنين
وشعر الغناء لتفنى المذاب

لا . . ولكنك خاضع لصروف الدهر ، وليس فى وسعك الا التسليم !

وتمر عليه فترة هول يعتقد فيها ان الذنب فى الهجر ذنب محبوبته لا ذنب الأقدار ولا ذنب من عاندوه فيذوب حسرة وتألماً ويقول يرثى هذا (الحبيب الجانى) الحى الميت:

بأى روح أم بأى عذاب آمال انعما ، أبكى الحنان الجم فى ذكراك

بهما معاً !...

تحيين أشجانا سأحيها غدا ، وتقطعين مسامر النساك !

الى أن يقول :

أنسى عليك من الشارع طيبها ، وأرى على بعد الخيال هلاكى !

ويحمل هذا البيت معنى حسنا مقبولا وهو عندى أرق وأعذب من قول الشيخ على الجارم مثلا

لو لم أخف حر الهوى وضميه ، لجعلت بين جوانحى مثواك

فالشطر الاول من بيت أبى شادى القديم المطبوع حوى فى رشاقته كل معنى بيت الشيخ على الجارم الصناعى ، ولاشك أن الشاعر الوجدانى المطبوع الذى يصيب المعنى خالصاً فى شطر واحد خير من يوزعه متصنعاً فى حشو على شطرين !

ويختم أبو شادى خطابه إليها بهذا البيت المؤثر :

لا تبخلي بالترب حولك ، ربما ... أحياه أن يغنى بطيب ثراك !

خيال شاعر ولا شك .. ولا تحسبها تبخل بالترب ولكن لن يحييه أن يغنى بطيب ثراها .. ولكن يحييه أن تنفث فيه سحر إبداعك !

يا حياة الروح يا روح الحياة — يا إلهى !

نعم .. يا إلهى !

كم يعانى الحب فى ذكرى مناه — فيرى لاه

هل رأيت مثل هذه الشكوى الثائرة بعد هدوء ، أو الخادئة بعد ثورة ؟!

وفى مثل هذا الخيال المجرى !

فارقنى فارقت وجدى لن يزول

وهمومى وشجونى لن تحول

قبل صوب البيت من فإن بيك !

دعك من الابتداع والتفنن فى النظم ، وقل لى أولا : ألا تسرى إليك عند قراءتها لاهجة أسى عظيم ؟... وتريد أن تختم دراستنا لشعر شبابه بقطعة (وداع الشباب) ، وهى منظومة وجدانية رقيقة استهلها بأسفه على عهد شباب تقضى :

أسفى على عهد الشباب المنقضى ... بجلال نعمته وحق زفيرى

وقد أشقاه وداعه لولا تعزية الضمير .

ودعته وحرمت آمال الهدى ... فشقيت إلا من لقاء ضميرى

لقد شيع ماضيه ، يكلله الفخار ، ولكنه يخشى أن يقابل تردد مقبله بفتور

ماض يكلله الفخار ومقبل ... أرعاه بين وداده ونفورى

وهو هو عابد الجمال وإن قسا عليه الجمال وجنت عليه عبادته له :

وأنا الشفيق على الجمال وإن قست ... وجنت عبثا إزاء مصيرى !

ولقد كنا نريد أن نفرغ معك الآن من دراسة غزل الشباب ، ولكنا نسينا أن نشير الى قصيدة حزينة قد تكون هى المثال الحى لغزل شبابه ، والحق أنا كنا نعمد إغفالها لأن مجرد تلاوتنا قد ينتزع من مقلتك دمعات فما بالك بدراستها !

هذه القصيدة هى (عرس مأتم) التى قال عنها أحد أصدقاء الشاعر وإنها نظمت

على مسمع ضعيف من موسيقي عرس حبيبته المغتصبة ، وكأن كل بيت منها جزء من فؤاده المتفطر » !

وسنعرض على القارىء بعض أبياتها ، قال في استهلاله المؤثر الحزين .

عذبة أنت في الخفاء وفي الجهـ ـر وفي الهجر يا أغاني الظلام
يلغي العاشق الأمين على الهمـ ـوم شقاء لقلبه المستهام
وارقأي أدمعي لحسبي عزاء ـ أن يسر الحبيب من إيلامي !

الى أن يقول :

كيف أنسيت يا غرامي ولوعي ـ هازئا من تقلب الايام !

وليقنع القارىء مني بهذا الآن ، فليس في طاقتي أن أنقل اليه القصيدة كلها ، فلا يطالبني بدراستها . . وليفعل ذلك هو إذا شاء فيرجع اليها في ديوان « زينب » ويحمل وحده أساها وشجاها !

(٥)

غزل الكهولة

قلنا ان كهولة ابي شادي الغزلية هي أمتع أطوار شعره ، وإن يكن كله حياً صادقاً ، حيث هدأت ثورة شبابه الحزينة وعاد اليه إدراك الحياة . وكاد يندمل جرح فؤاده .. لا .. فانه لم يندمل تماماً ، وإن جاز لنا تشبيه على يناسب أبا شادي الطبيب فلنقل إنها ضمادات تمنع النزف مؤقتا . . ولكن أثر الجرح مازال يؤلم الجريح ان أثارته الذكرى !

واطمأن الشاعر الى هذه الضمادات المؤقته ، وعلم أن الأمر قد قضي ، وتمت نكبته في غرامه ، وليس يجدي فيها نقض ولا إبرام !

فهلا أخذه من حبها سلوان ! . . . لا ، فمازال الحنين يعود به إليها ، ولكن عبادته لجمالها تحولت الى عبادة مطلقة للجمال العام ، وهو يؤمن مع ذلك بوحدة الحب ، ويرى أن غزله العام في الحسان يذكره بغزله في حسنها ، أو على الاصح أنه يتمثلها في سواها وأن عبادته للجمال المطلق هي عبادة رمزية لجمالها هي . . ترى ذلك واضحا في قصيدته (الحسن الخائل) كما نحسها في قوله في (وحدة الحب) من قصيدته التي نشرتها « العصور » حديثاً :

مثل الجمال إذا خطرن لناظري ، مشت فيهن الجمال إزائي!

وقد ذكرنا أن غزل أبي شادي في الكهولة تسامى أكثر إلى فنون أخرى ، ولم يكن يبلغ الغزل إلا على أنه أنعام فنية تحمل إلى العاشقين معاني تسمو بهم عن شهوات المادة والحس .

ونستعرض عليك من غزل الكهولة هذا صوراً ثلاثا لعلها كل ما يجوى :

١) غزل وجداني

٢) غزل وصفي

٣) غزل قصصي

وسندرسها معاً الآن في إيجاز ، وهناك صورة أخرى هي الغزل التصوفي ولكننا لانعرض لها الآن. فلسنا نعدها من غزل هذا البحث وكله موجه للمرأة يشرح عواطف الرجل نحوها أو يصفها أو يروي قصصه معها . . فلنبدأ بغزله الوجداني .

ونريد أن نستهل ذلك بقوله في قصيدته (أمتع الأنس) :

تنازلت طوعاً عن وعود بجنة ، لساعة صفو منك بالحب غالية!

أتراه يعني مايقول حقيقة . أنفسه ينزل عن آخرته بساعة وصل منها!

وما الحور والولدان في معرض الهوى ، وأنت مثال اللذة المتناهيـــة!

والحق أنه بهذا الاستفهام الانكاري يقدم لنا معنى طريفاً وإن كان يزري بالحور والولدان ولا يرى ذلك! ثم يصف الحبيبة ملتمساً مبرراً لغلوه :

وفي كل لفظ خفة أو رشاقة ، تجدد من أحلامي المتفانية

حقا! . لقد كدنا نزري معك بالحور والولدان!

ولأبي شادي في مثل هذا المعنى أبيات جميلة بعنوان (جنوني) وهي إحدى غزلياته الكثيرة الصادقة في ديوان (الشفق الباكي) ، وفيها يقول :

ومن لي سواها في القيامة شافعاً ، لدى الرب إن جلت لديه ديوني!

ثم يردف ذلك بتعليل بارع :

أقول: إلهي أنت تدري عبادتي ، لحسنك في حسن أحل فتوني

فكل ذنوبي جنب ذلك تمحى ، ومابذنوب الحب غير فنون!

فهو يعبد جلال الخالق في جمال المخلوق ، ويرى أن في ذلك شفاعة له يوم القيامة!

وهو يرى أيضا أن (جمال الكون طوع لحسنها) :

كأن جمال الكون طوع لحسنها ٭ وفى حسنها كل الجمال تناهى !

فان هى بانت أوحش الكون بعدها ٭ كأنا عدمنـــا فى الوجود إلها !

وفى البيت الثانى شعور عميق نظم على قبسه الشيخ على الجارم أيضا وان لم يأت بجديد فكل شعره الغزلى تقريبا مقتبس من (مسامرة الحبيب فى الغزل والنسيب) ولولا تلحينه والتغنى به لما كان له شأن :

فاذا وصلت فكل شىء باسم ٭ واذا هجرت فكل شىء باك

فترى أيهما الذى وفق الى ابراز شعوره فى معنى جميل قوى وفى تعبير رائع آسر؟ أذلك الذى يقول إنها إذا بانت خيمت الوحشة والكآبة كأن العالم فقد إلهه المدبر الحاكم الذى يخفف من عبئه وينظم حياته وسعادته ! أم الذى يقول إنها اذا وصلت استغرق « كل شىء » فى التبسم وانها ان هجرت بكى وناح ! هذا هو الفارق مابين الشعر المطبوع وشعر الصناعة الذى كل بهجته فى زينه الأجوف وبهرجه الكاذب .

ويرى أبو شادى ان فى هجرها فوق الوحشة والكآبة موتا له من الحسر فوالأسى وهو يقول فى قصيدته (الوعد) :

غابت فمت بحسرة وهوى ٭ وكأن هذا الصد لى لحد !

ويشبه وعداً خالفته معه ببعث بعيد :

وظللت أذكر وعدها فاذا ٭ بالوعد مثل البعث لايبدو !

هذا غزل الوجدان ، أما غزل الكهولة الوصفى فأمثلته فى شعر أبى شادى كثيرة ولعل من أروعها قوله يصف غانية نزلت إلى البحر تستحم فى قصيدته (سان استفان) :

تتســـابق الأمواج فى ٭ تقبيلها قبـــل الحنـان !

وهو يحسب كل شىء فى العالم يود لو استمتع بتقبيلها حتى الأمواج يرى أنها لاتقنع بالقبلات فعانقها وتحضنها :

وعناقهـــا طوراً برفـ ٭ ـق ثم آنا فى احتضـــان !

ويقول فى غادة ترشف (الكتيل) .

رشفت من الككتيل حلو شفاهها ٭ فأعارت الككتيل طعم شفاها

وأنّ من هتم الشفاه!

بالحذر قبل الثغر يخبل حسنها ، فيزيد في أثر الكؤوس الراهر!

وهو موقف يتابع الشعر إلى الكأس أولاً .. فتلاقى أشعة اللحظ بالزجاج ويرتد الشعاع .. فهو تمهل يلحظها قبل أن ترشف بالشفاه!

ويعيد أبو شادن في وصف الحسناء وقد تبدت وبثرها الفيلسوف منتشية في قصيدته (بين نارين):

تبدت والقنينة في دهاق ، عسى تعبر عن ضرام!

فقلت لها أنا الأولى بشيء ، دعيه أم من ذاك غرامي!

أترى ما يثير انشغال الفيلسوف في نفسه؟!

وله في وصف (راكبة القراصة) الحسناء متطوعة عصرية الروح جميلة المظهر:

من علم الحسن الدلال الذي ، يغضب لا يرعى حقوق الأنام؟!

ومنها:

ألعبت ساقيك بلا مرجب ، ياحسن ساقيك بوثب يرام!

هلا لبست طويراً لنا ، فكلنا يحمل عبء الغرام!

أجل! أحق!

ويقول الحسناء الفقيرة في قصيدته (الأبرة الضالة):

عسلام وهبتنا ثروة ، وليس لنا على حسرة!

أيشكو الفقر عنكم ، وعلى الأثاث من نظرة!

تشكو الفقر كسائر البشر! وما كان الحب شفيع فقر، وإن شفع للمحبين يوم الحشر! وأما الغزل القصصي فأمثلته كثيرة مبثوثة في شعر أبي شادي! ويستقصر منه على دراسة (ليلة سيف) عند ما اجتمع بمن يهوى في خلوة ليلية مقمرة في فصل الصيف وقد غنت له أغنية حسبها توخت أن يكون توقيعها على وقع قلبه المضطرب:

غنت على وقع قلبي أي أغنية ، أهدت إلى الأمل البسام ريحانا!

ويستزيدها غناءاً على العود فهي طب القلب ان قتله نشوة الطرب:

غني على العود يانفسي ويالقرى ، فأنت طب له إن مات سكرانا!

وهو يحسب العود مشغوفاً بتحيتها فيسابق صوتها توقيعه :

تسابق الصوت أوتار مرنحة ٥ والقلب غيران يخشى منه غيرانا !

والقلب يغار من حنو العود ومن تسابقه إلى تحيتها :

فقبلت موضعاً من فؤاده ٥ وبللت بدموع منه أشجانا !

كأنما روعت من ناره فبكت ٥ والظلم يولم مشقى الناس أحيانا !

فلقد أشفقت على فؤاده فقبلت موضعاً اختلج فيه وبللته بدموعها كأنما راعتها حرقته ! ولم لا تفعل ! ألا يشجي الظلم عاتي الناس أحياناً !

***

لقد تشعب بنا بحال القول ، وأظننا لانفرغ قريباً إن أردنا أن ندرس على هذه الطريقة نماذج من شعر أبي شادي الغزلي فما بالك به كله !

وكنت أحسب أني أستطيع أن أدرس معك بعض غزلياته المختارة مثل (العليل المنفى) و (بعد الفراق) و (شعر الحب) و (بروحي) و (قبلة) و (تساؤلين) و (نماذج الشعراء) و (المشئ) و (الحسن الخاتل) وغيرها ولكنني لاأدري ماذا أذكر وماذا أترك . . . فليقنع القارىء بما ذكرنا من نماذج ، ولننتقل إلى الدراسة العامة في إيجاز كلي مراعاة للمقام .

(٦)

غزل الطبع وغزل الصناعة — أثر الغزل في شعر أبي شادي

بعض الشعراء من مهرة الصناع يتصيد المعاني كما يتصيدون الألفاظ ، ويرصفونها رصفا منسقاً أو منقطعاً في غير مبالاة أو مراعين على أكثر تقدير حلاوة الألفاظ وجرسها وما كان الشعر صناعة يلهو بها العاطلون والأدعياء المتكاسلون ! ولا فائدة لنا مطلقاً من الغزل الصناعي ولا من الاقتصار على الغزل الحسي ، وخصوصا ذلك الذي تولده الغريزة الحيوانية فيكاد يتصل بالهمجية ويهجر روحانية الشعر الجميلة التي تصل الشاعر المعاني السامية .

وإن صح أن أبا شادي لاينظم الا عن دافع وجداني قوي حي في أي ضرب من ضروب الشعر ، وإن صح أن هذا هو الواقع حتى في شعره الاجتماعي والسياسي ، فهو

أحق ما يكون على الأخص فى شعره الغزلى الذى لا يمكن أن تشوبه شائبة الصناعة ، ولعل أصدق ما يوصف به هذا الغزل أنه يوحي القلب الى القلب، ورسول العاطفة الى العاطفة فلا مقارنة بينه وبين شعراء غزل المذكر وواضعى الأغانى الصناعية وأمثال هذا العبث الذى ابتلينا به فى شعر أكثر شعرائنا المعاصرين سواء كانوا من المحافظين الرجعيين أم من المتصنعين زوراً بالتجديد .

ويستمد أبو شادى من روح الغزل هذه فى مواقف رواياته الغنائية (أوبراته) حتى أنك لتلمس وأنت تقرؤها أنها حقائق واقعة، وما ذلك إلا لأن مصادر استمداده الغزلية حية فى نفسه ، فهو شاعر الحياة بحق .

(٧)

خلاصة

ويمكننا أن نخرج الآن من هذه الدراسة المطولة بما يأتى :

(١) ان غزل أبى شادى هو أشبه بالهام حار الى النفوس الحساسة الرقيقة .

(٢) انه يصور لك فى رقة جمال المرأة ، ويصف ما يلاقيه الرجل فى هواها وبقدر ما يكون بينهما فى كياسة تعبير لن تنفر منها بل تجتذبك اجتذابا .

(٣) أن معانى غزله تسمو بالنفس الى ما وراء العالم المادى حيث السعادة الروحية تزرى بالبهيمية والحيوانية الممقوتة .

(٤) يصل غزله بين الجمال الانسانى والجمال العالمى فى فلسفة مقبولة تستوعبها النفس فى لذة واستمتاع عظيم

*
* *

وهكذا كان غزل أبى شادى متمشياً مع طبيعته ومواهبه من جهة ومع ثقافة العصر من جهة ثانية ، وبذلك صار غنما للادب العصرى عامة وللأدب المصرى خاصة، ولم يكن مجرد عبث ولهو ضائع ؟

على محمد البهراوى